مجلة الرائد

العدد : ٢١١ الموافق في ربيع أول ١٤٢٠ هجري ٧ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : أستاذنا الشيخ علي الطنطاوي	بقلم : د. محمد بن لطفي الصباغ

كتب العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمد بن لطفي الصباغ هذا المقال القيم في جريدة الجزيرة في الرياض ، وقد استأذناه نحن أيضاً في نشره إفادةً من علمه وفكره ، وتحيةً ووفاءً للرائد الإسلامي الكبير : الشيخ علي الطنطاوي عافاه الله

من الصعوبة بمكان أن أكتب كلمة وافية عن أستاذنا العلاّمة الشيخ علي الطنطاوي حفظه الله وأطال عمره ؛ ذلك لأنّ الجوانب العظيمة التي انطوت عليه شخصية الشيخ متعددة متنوعة .

إنه إنسان عظيم حقاً .. وصلتي به تزيد عن بضع وأربعين سنة .. وقد وقفتُ خلال هذه الحقبة الطويلة على ملامح من عبقريته ، وخصائص من شخصيته ، ولا أستطيع أن أوردها كلها في هذه الكلمة ، وأؤكد أن هناك جوانب أخرى وقف عليها غيري من أصحابه وتلامذته ، والذي يريد أن يكتب عن هذا العالم الكبير يجب أن يعالج تلك الملامح وجميع هاتيك الخصائص ، وهذا يقتضي كتاب مؤلف خاص بسيرته ومزاياه .

فأستاذنا فقيه ، وقاض ، وحقوقي ، وأديب ، وبليغ ، وناقد ، وخطيب ، ومؤلف ، وصحفي ، وكاتب ، وداعية إلى الله ، ومحدث في الإذاعة والتلفاز .

وأسرة الطنطاوي أسرة علم وفضل جاءت من مصر واستقرت في دمشق ، فقد جاء الشيخ محمد بن مصطفى الطنطاوي إلى دمشق سنة ١٢٦٥هـ وهو العالم الفلكي الشافعي ، فكان موضع تكريم أهلها الذين أحلّوه المكانة التي يستحقها عملاً بالتوجيه النبوي إذ يقول النبي e : " ليس منا منْ لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ويعرف لعالمنا حقه " وتوفي بدمشق سنة ١٣٠٦هـ وقد جاء مع الشيخ محمد الطنطاوي ابن أخيه الشيخ أحمد الذي هو جد شيخنا الشيخ علي حفظه الله .

أما والد أستاذنا فهو الشيخ مصطفى الطنطاوي كان معلماً ثم أميناً للفتوى بدمشق وعين مفتياً في السويداء ثم رئيس ديوان محكمة التمييز ، وكان في الوقت نفسه إماماً في مسجد وله مقطوعات شعرية في المدائح النبوية وقفت عليها وهي عندي ضمن مجموعة لعدد من المشايخ ، وأتوقع أن يكون له شعر في موضوعات أخرى .

وقد توفي في ٢٠ شعبان ١٣٤٣هـ ولم يجاوز عمره ستاً وأربعين سنة .

وأخوال أستاذنا حفظه الله من آل الخطيب وهي أسرة علم ودين ويرجع نسبها إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ولها جزء من خطابة مسجد بني أمية حتى الآن ، وخاله الكاتب الإسلامي الكبير ، والعالم الجليل ، والمحقق الكبير ، والصحافي والسياسي الأستاذ محب الدين الخطيب صاحب « الفتح » و « والزهراء » ورئيس تحرير مجلة الأزهر .

وأستاذنا - حفظه الله وبارك في عمره - هو أول من جمع بين الثقافتين العصرية والدينية في بلاد الشام ، إذ كان طلاب العلم قبله : إما من المشايخ الذين لا يدري كثير منهم شيئاً عن الثقافة المعاصرة ، بل ولا عن الأوضاع الفكرية والسياسية التي تقوم في العالم ، وإما من الأفندية الذين لا يدري كثير منهم شيئاً عن الثقافة الدينية ، بل كانوا يحملون التصور الأجنبي عن هذه الثقافة ومضمونها . فجاء الشيخ علي فجمع بين الثقافتين على مستوى عال .. فدرس في المدارس العصرية العلوم التجريبية وتمكن من اللغة الفرنسية ، ونال شهادة البكالوريا الأولى ثم البكالوريا الثانية .. ثم التحق بكلية الحقوق ونال شهادتها بتفوق في وقت قلّ فيه من يحمل هذه الشهادة .

وعمل في التدريس والصحافة وهو في سن مبكرة .. ثم اختير للقضاء فكان القاضي الشرعي في دوما ، ثم في دمشق ، ثم أصبح القاضي الممتاز ، ثم أصبح عضو محكمة التمييز (النقض والإبرام)

ودعي إلى المشاركة بتدريس بعض المواد في كلية الشريعة بدمشق ثم عمل مدرساً في كلية اللغة العربية في الرياض ثم انتقل إلى كلية الشريعة في مكة .. ثم تفرغ للإذاعة والتلفاز .. فكان له برنامج إذاعي يومي يرد فيه على عشرات المسائل التي يتلقاها كل يوم ، وله برنامج تلفزيوني أسبوعي يتلهف الناس لسماعه من مختلف المستويات . وما رأيت برنامجاً دينياً أنجح منه على الإطلاق .

تزوج أستاذنا من آل الخطيب ، ورزق خمس بنات زوجهن جميعاً وله منهن عدد كبير من الأحفاد . وكان يقول لي : " أنا من الدرجة الأولى بالنسبة للأولاد لأن الله تبارك وتعالى جعل الناس أربع طبقات وكان يتلو الآيتين { لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير } [الشورى ٤٩-٥٠]

ولنذكر الآن بعض الجوانب التي تميز بها أستاذنا بإيجاز بالغ :

- فقد كان فقيهاً كبيراً ، قرأ كتب الفقه الحنفي على المشايخ في دمشق ، وألم بما في المذاهب الأخرى ، وقد أتقن مسائل الفقه المتعلقة بالأحوال الشخصية من نكاح وطلاق وخلع وميراث .. بل كان واحداً من الذين وضعوا قانون الأحوال الشخصية المستمد من الشريعة الإسلامية في بلاد الشام .

● وكان عالماً في أصول الفقه ، وقد حضرت عدداً من الدروس الأسبوعية التي كان يلقيها في دار الدكتور أحمد حمدي الخياط ، وكان يحضر معنا الشيخ ناصر الألباني واستمر هذا الدرس الأسبوعي مدة جيدة .

● وكان قارئاً سريعاً يقرأ المجلد في ليلة واحدة مع الاستيعاب والقدرة على تلخيصه وإعطاء فكرة واضحة عنه ، وقد ذكر لي أن مجلة المختار الأمريكية ذكرت مرة أسرع قارئ في الدنيا في مباراة لعدد من القراء وفق قواعد وطريقة معينة في القراءة : قال حفظه الله : فطبقت تلك القواعد والطريقة فوجدت نفسي أسرع منه .

● ولدى الأستاذ في دمشق مكتبة عامرة بعضها مما ورثه وأكثرها مما جمعه هو مما كان يشتري ومما كان يهدى إليه .

● وكان أستاذنا قاضياً نزيهاً .. بل لقد كان في قمة النزاهة وابتغاء العدل والصدق .. لا يقبل الشفاعة .. ولا يسمع من خصم إلا بحضور الخصم الآخر .

● وكان أستاذنا أديباً فذاً .. أحاط بما في كتب الأدب شعره ونثره وله أسلوب بليغ هو من السهل الممتنع .. فقد بلغ في إجادة الكتابة درجة لم يصل إليها إلا القلة من الكتاب ، وقد ظل يمد الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية بمقالات رائعة في الأسلوب والمضمون .. تشهد له بالموهبة المتفوقة .

● وقد أغنى المكتبة الأدبية والإسلامية بعدد كبير من الكتب النافعة الرائعة وظل عطاؤه ممتداً أكثر من خمسين سنة .

● والأستاذ الطنطاوي خطيب مصقع .. فقد كان أخطب أهل عصره وكان يهز نفوس السامعين هزاً . وعندما كنا طلاباً في الجامعة وأقمنا فيها مسجداً جامعاً كلفناه بإلقاء الخطبة الأولى فيه فاستجاب لطلبنا ونقلت الإذاعة السورية الخطبة والصلاة .. وكان - جزاه الله الخير - يخطب محتسباً مرات كثيرة في مسجد الجامعة .. ويتناوب هو و الأستاذ عصام العطار هذه الخطابة ، وكان لخطبه الأثر الكبير في المصلين .

● والأستاذ الطنطاوي محدّث ناجح في الإذاعة والتلفاز ، فقد شهد الخبراء المختصون بأنه أنجح متحدث في هاتين الأداتين من أدوات الإعلام ويمتاز بإلقائه الجميل المحبب إلى النفس .. وقد كان له من نحو خمسين سنة حديث أسبوعي في إذاعة دمشق يذاع بعد صلاة الجمعة ، وكان الناس ، نساء ورجالاً ،

صغاراً وكباراً ، عامة ومثقفين ينتظرون هذا الحديث ويقبلون على سماعه

- والأستاذ الطنطاوي صادق التدين ، جريء في إعلان ما يرى ويعتقد ، لا يخشى في الله لومة لائم ، وكان له قبول كبير في بلاد الشام ، وكانت كلمته مسموعة ، ويستجيب لها الكثرة من الناس ، لأنهم يثقون بصلاحه ودينه ونصحه للأمة .. فقد مرت ببلاد الشام أزمات .. وجاء وضع جديد لم يلق الاستقرار والتأييد إلا عندما ألقى الشيخ علي الطنطاوي حديثاً بهذا الخصوص .
- والأستاذ الطنطاوي داعية إلى الله موفّق ، وقد استمر في الدعوة أكثر من ستين عاماً .. لقد بدأ يدعو إلى الله وهو ما يزال في العشرين .. وقد جاوز الآن التسعين . بارك الله في عمره وأمدّه بالقوة والعافية
- وله تاريخ حافل مجيد في مقاومة الفرنسيين في خطبه ومقالاته التي لو جمعت لكانت مجلدا كبيراً .

وبعد ماذا عساني أن أقول ؟ .. إن مجال القول واسع في شمائل هذا الرجل الكبير . وختاماً فإني أسأل الله أن يجزيه الخير عن عمله وجهاده وأن يختم له بالحسنى ، وأن يمنحه القوة والعافية والحمد لله رب العالمين .